تكملة محاضرات لطلبة تاريخ سنة أولى ماستر تاريخ الغرب الإسلامي

[Tapez le sous-titre du document]

[Sélectionnez la date]
[Tapez le nom de la société]
Aissam

المحاضرة الثالثة :

رغم اختلاف الروايات التاريخية حول نشأة وظهور الفكر الخارجي(1) إلا أن المتفق عليه بين مؤرخي وفقهاء المرحلة أن البداية الحقيقة

في انقسام الأمة وتفرقها إلى أحزاب ومذاهب ارتبط عمليا بعد مقتل عثمان بن عفان –رضي الله عنه- 35 هـ -656 م (2) من قبل معارضيه من أعراب البادية وخصومه السياسيين في الأمصار وبالخاصة مصر والكوفة إذ لم يكن هؤلاء راضون عل سياسة الخليفة بعد أن استبد المحيطين بِهِ من بني أمية بالحكم وتحكمهم في مفاصل الدولة واضروا بمصالح الرعية حتى أن الصحابي الجليل أبا ذر الغفاري عتابه على ذلك قله:" لقد بدلت وغيرت" (3)

-1 - تجمع المصادر التاريخية على غرار الطبري والبغدادي و الشهرالستاني وابن الأثير أن الجذور التاريخية لنشأة الفكر الخارجي تعود إلى عهد الرسول ﷺ حيث أقدم احد أعراب البادية ممن شاركوا معه في إحدى غزواته ويدعى ذي الخويصرة على اتهامه بعدم المساواة في توزيع الغنائم ولما عزم احد الصحابة على قتله, نهاه الرسول ﷺ وقال معلقا على ذلك قوله: " دعه فإنه يولد من أصلاب من مثل هؤلاء أناس يصلون صلاتكم ويزكون زكاتهم ويصمون مثل صيامكم ويحجون مثل حجكم لكنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية

-2 – يستفاد مما ذكرنه المصادر أن العلماء قد افترقوا عصر ئذ إلى فريقين الأول يرى ضرورة مطالبته بالعدل والقيام لأمر الله والتزام أحكامه فإذا امتنع جاز قتله وهم نواة الخوارج

الفريق الثاني : يرى ضرورة الصبر على إمام أهون لان ذلك قد يؤدي إلى فتنة

ـ انظر حول الموضوع البغدادي الفرق بين الفرق ص54وما بعدها

3 هشام جعيط : ص60 وما بعدها

لا جدال إن وفاة الخليفة عثمان بن عفان قد أفرز وضعا جديد وكرس حالة من الانقسام بين أنصار معاوية بن أبي سفيان وكان يومها واليا على الشام وقد رفض التنحي عن السلطة بل طالب من الخليفة الجديد علي بن أبي

طالب ضرورة اخذ الثأر من قتلة عثمان رضي الله عنه, فكانت موقعة الجمل وصفين وان لم تفض هاتين المعركتين إلى ترجيح الكفة أي أحد منهم لجأوا إلى التحكيم , الأمر الذي أثار حفيظة الذين كانوا في صف علي كرم الله وجهه وخرجوا عليه ورفضوا مسألة التحكيم ورأوا انه يحق لكل مسلم بغض النظر عن انتمائه القبلي أو جنسه أو لونه أن يكون حاكما إذا توفرت فيه شروط الإمامة منها على وجه الخصوص (الإسلام ـ الفضل ـ العلم ـ الأمام بإحكام الشريعة), ولهذا السبب شقوا عصا الطاعة ووقفوا في وجه علي كرم الله ومعاوية معا, ورأوهما على ضلال واعتصموا بإن لا حكم إلا لله لا بني هاشم من اهل رسول ﷺ ولا لبني أمية من قريش ـ و أمعنوا في ذلك حتى أنهم كفروا عليا وحاربوه ـ فكانت معركة النهروان سنة 37 هـ / 658 م وانتهى هذا السجال بمقتل الخليفة سنة 40 هـ /661 م ومع ذلك استمر الخوارج في عدائهم ومعارضتهم بني أمية الذين استبدوا بالحكم وجعلوه وراثيا ـ و رغم انقسامهم إلى نحو واحدا وعشرون فرقة كان الأزارقة الأشد تطرفا ودموية عن غيرهم من الفرق وخاصة الصفرية والإباضية الذين انتقل دعاتهم إلى بلاد المغرب

ـ الخوارج الصفرية و الإباضية ببلاد المغرب(الدعوة ـ الثورة ـ الدولة): ـ ظروف وعوامل انتقالهم إلى بلاد المغرب

صحيح انه لا تتوفر لدينا اجابة جاهزة لتحديد تاريخ دخول الخوارج الصفرية و الاباضية الى بلاد المغرب , وعن الظروف المصاحبة لذلك لكن بالعودة الى المصادر التي سبقت الإشارة إليها ,تؤكد أنهما حلتا بالمغرب في وقت واحدٍ وحسبنا أن الرواية التاريخية تشير الى قدوم الداعي عكرمة الصفري[1] مولى ابن عباس بمعية الاباضي سلمة بن سعيد[2] أواخر القرن الأول وبداية القرن الثاني دخلا افريقية على راحلة واحدة[3] .

لاجدال ان مظاهر الاضطهاد و حالة حصار التي فرضها الامويون على الخوارج في المشرق الاسلامي والانتصارات التي أحرزوها عليهم قادة بن امية امثال الحجاج بن يوسف الثقفي (75-95هـ /695 -714 م) دفعتهم الى اعادة النظر في طرق تفكيرهم و تنظيوهم و أجبرت العديد منهم الى التنقل بين الامصار الاسلامية والهجرة الى حيث لا تنالهم أيدي البطش

-1- اسماعيل الخوارج ص 46 وما بعدها

2 ـ نسب المذهب الصفري إلى زياد بن أصفر حسب بعض الروايات بينما تفند أخرى وترجع أصل التسمية يعود بالأساس إلى الصفرة التي كانت تعلوا وجوه دعاة المذهب من كثرة التعبد أما المذهب الإباضي فنسبه إلى عبد الله بن الإباض أنظر : البغدادي

3ـ محمود إسماعيل : الخوارج ص46 وما بعدها

اي في بيئات التي ما زال مسلموها ينعمون بحياتهم الدينية في اطار من البساطة المذهبية الغير متحزبة ـ كما عبر ذلك احد الباحثين, وقد وجد مهاجروا الـخوارج خاصة منهم الصفرية والإباضية ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ في بيئة المغرب نموذجا لهذه البيئات للترويج لدعوتهم و تقوية صفوفهم وقد اتخذوا من المرابطة على الثغور و السواحل المغربية, ـ بقصد العبادة و الحراسة ونشر الثقافة ,العربية إحدى وسائل[1] الاتصال بالقبائل البربرية، لنشر أفكارهم المذهبية و قد تزامن ذلك وخصوصية المرحلة التي كانت تعرفها بلاد المغرب في نمو ظاهرة التمرد القبلي ضد سياسة الولاة الامويين ـ لما أحدثوه من تجاوزات في حق الرعية, وما صاحب إلى من إلى مظاهر الجور و التعسف و جباية الأموال

1- موسى لقبال :مغرب الإسلامي ص153

ولعل ما يدعم هذا الطرح الرسالة التي رفعها وفد المسيرة لمدغري إلى الخليفة هشام بن عبد مالك و نقلها الطبري في تاريخه قوله "أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزوا بنا و بجنده فإذا أصاب نفلهم دوننا وقال هم أحق به فقلنا هو أخلصوا

لجهادنا ... ثم إنهم عمدوا إلى ماشيتنا فجعلوا يبقرونها عن السحال يطلبون الفراء الأبيض الأمير المؤمنين فيقتلون ألف شاه في جلذ فقلنا : ما أسير هذا الأمير المؤمنين فإحتملنا ذلك ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا فقلنا لم نجد هذا في الكتاب ولا سنة نحن مسلمون ـ فأحببنا أن نعلم أعن الرأي أمير المؤمنين ذلك أم لا:

قال الأبرش ففعل فلما طال عليهم و نفذت نفقاتهم كتبوا اسماءهم في رقاع و رفعوها إلى الوزراء[1] و ينضاف إلى هذا كله الإحتقار و الإذلال الذي لحقا بالبربر ـ على عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ووالیه يزيد بن أبي المسلم الذي وشم على أيدي حرسه من البربر ـ البترـ فقد كان يشم الاسم في اليد اليمنى والحرس في اليد اليسر ى ناهيك عن تخميس البربر و إحصاء أموالهم و أولادهم و حسبنا أيضا ما ذكره :ابن عذارى المراكشي: الذي رصد في بيانه مظاهر الجور لإرضاء الخلفاء ـ قوله "كان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب و يبعثون فيها إلى عامل إفريقية, فيبعثون لهم بالبربريات سنيات فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب مناهم بالكثير و تكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كانت فإضطر إلى تعسف و سوء سيرة

1ـ الطبرى : تاريخ الملوك و الرسل ج4 ص288 وما بعدها

2ـ البيان المغرب ج1 ص52 : حسين المؤنس: : فتح المغرب 294 .

ـ الصفرية من الثورة إلى الدولة :

يرى لفيف من مؤرخي المرحلة أن عكرمة الصفري من أصل مغربي خالط مجموعة من الفقهاء و أخذ عنهم [الفقه والحديث و تبنى فكر و مبادئ الصفرية و قد حاول بثه في المغرب انطلاقًا من مركز القيروان ـ و أزره بعض من اتصل بهم من الزعماء القبائل ـ كما حدث ذلك مع زعيم قبيلة مكناسة ابو القاسم سمعو بنو وسول الذي يعتقد أنه الداعى الحقيقي للمذهب,بعد أن أخذ أَصُولَهُ عن عكرمة ونشرها بين أفراد قبيلته ـ وينقلها إلى سجلماسة ـ و قبل أن نفصل في مسار الثورة ونجاحاتها ـ أرى أن نقف على أهم مبادئ المذهب الصفري و قبائل البربر التي ساعدت في انتشاره .

ـ مبادئ المذهب الصفري :

يعد المذهب الصفري ـ بنظر العديد من المؤرخين ـ أنه أكثر مذاهب الخوارج اعتدالا ـ لأنه ينادي بعدم إباحة دماء المسلمين ولا يرون أن دار ـ مخالفيه ـ بدار حرب ـ ولا يجيز أصحابه سبي النساء ـ والأطفال ـ ويركز دعاته على محاربة السلطان وحاشيته ـ ويرون من الناحية الفقهية أن التفكير فيما ليس فيه حد كترك الصلاة ـ وما كان فيه حد كالنزنا ـ يكفي إقامة الحد ولا يجوز فيه التكفير إلى جانب هذا كله ـ لايقولون بقتال الكفرة لأنهم قصروا في تقدير نعم الله ـ كما أسقطوا مسألة تفكير القعدة عن القتال لأنهم من نفس العقيدة و الدين وقد لجأوا إلى التستر عن دعاتهم ـ بمبدأ التقيه

ـ المكون البشري:

غير خاف أن مذهب الخوارج في المشرق الإسلامي ـ وبعيدا عن الناحية الإديولوجية ـ كان أداة ووسيلة ـ تعكس حالة التذمر و التمرد على السلطة المركزية ـ لاسيما و أنه يقوم على مبدأ المساواة وشورى , ولعلى ما يدعم هذا الطرح ويثبته ما كان يتمتع به مذهب الخوارج من إغراء بين ساكنة المغرب من البربر لكن من المفيد جدا أن نبحث فيمن إنخرط وقاد هذه الثورات وحدود الإنتشار داخل مجال المغربي .

تؤكد مصادر التارخيه ـ مع إقرارها لصعوبة الوصول إلى تحديد الفئات مجتمعية ـ التي احتضنة المذهب الصفري و مرد ذلك ـ يعود لتعقيد الخريطة البشرية وسرعة التنقلات داخل المجال .

أشار ابن خلدون (ت 808 هـ) في كتابه العبر إلى الدور بني يفرن من زناتة في الترويج للمذهب الصفري و قبله ابن الأثير الذي ذكر في كامله أن بعض العرب بإفريقية قد انخرطوا في المذهب وفي نفس السياق أكد ـ البكري على تبني جماعة من السودان سيجلماسة أيام عيسى بن يزيد الأسود وحتى من الأفارقة وهم من البربر ـ الذين تشبعوا بالتقاليد الرومانية ثم البزنطية -1- ومن جهته يؤكد الباحث حسين مؤنس على الدور الريادي لقبائل زناتة الذين أخذوا بمبادئ الخارجية على المذهب الصفرية قوله: " إن غالبية البربر الذين اشتركوا في هذه الحركات الخارجية كانوا زناتيين من البدو" و البتر وكان أولئك الزناتيون من هوارة ـ نفوسة ـ مكناسه لواته أما إفريقيه و منطقة الزاب بالمغرب الأوسط فقد أقامت على مذهب أهل السنة

1- محمود إسماعيل : الخوارج ص60 وما بعدها : هشام جعيط تأسيس الغرب الإسلامي ص156 وحول دور قبائل في الحركة المذهبية : أنظر أطروحة محمد بن عميرة دور زناتة في الحركة المذهبية .